مطبوعات مكتبة مصر

العائش في الحقيقة

تاليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

أصل الحكاية

ولدت الرغبة فى أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة ، والسفينة تشق طريقها ضد التيار الهادئ القوى فى أواخر فصل الفيضان . بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أختى التى استقر بها الزواج هناك . وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة . مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة ، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشيائها . مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا ، متعرية الأشجار ، خالية الطرقات ، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة ، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة ، يجثم فوقها الصَمت وتخيم عليها الكآبة وتلوح فى قسماتها أمارات الموت . أجلت فيها البصر فانقبض صدرى ، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته :

ـــ ما شأن هذه المدينة يا أبى ؟

فأجاب دون تأثر :

ـــ مدينة المارق ، المدينة الكافرة الملعونة ، يا مرى مون ..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات منثالة ثم سألت :

ـــ ألا يوجد بها حى ؟

فأجاب أبى باقتضاب :

ـــ ما زالت المرأة المارقة تتنفس فى قصرها أو سجنها وهو الأصح ، كما يوجد بعض الحراس بلا ريب ..

فغمغمت متذكرا :

ـــ نفرتيتى !

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها ؟!. وسرعان ما استعدت ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس ، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذى أطاح بأرض مصر ، والإمبراطورية ، وما سموه بحرب الآلهة ، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة والقدر . أجل تذكرت تلك الأيام المنسية ، وما قيل عن دين جديد ، وتمزق الناس بين الإيمان والولاء ، والجدل حول الحقائق الغامضة ، والهزائم المريرة ، والنصر المقترن بالحزن . ها هى مدينة العجائب مستسلمة للموت ، ها هى سيدتها سجينة تتجرع الألم فى وحدة ، ها هو قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شىء . وقلت لأبى :

ـــ لن ترمينى بحب الدعة بعد اليوم يا أبى ، إن رغبة مقدسة تغزونى مثل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر شبابك يا أبى ..

فرمقنى أبى بعينيه الكليلتين وتساءل :

ـــ ماذا تريد يا مرى مون ؟

ـــ أريد أن أعرف كل شىء عن هذه المدينة وصاحبها ، عن المأساة التى مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية ..

فقال بجدية :

ـــ ولكنك سمعت كل شىء فى المعبد .

فقلت بحماس :

ـــ قال الحكيم تاقمنا « لا تحكم فى قضية حتى تسمع الطرفين » !

ـــ الحقيقة هنا واضحة فضلا عن أن الطرف الآخر ، المارق ، قد مات . .

فقلت بحماس متصاعد :

ـــ أكثر الذين عاصروه ما زالوا أحياء يا أبى ، وجميعهم أقران لك وأصدقاء . فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار ، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها الزمن كما أتى على المدينة . .

وواصلت إلحاحى عليه حتى استجاب لرغبتى ، بل لعله تحمس لها فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق ، ولرسوخه فى العلم الذى جعل من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عرف بين صحبه « بصاحب الأرض الطيبة والحكمة النادرة » ، كما عرف قصره بالندوات تروى بها الحكايات وتردد الأشعار وتمتد بها موائد البط والنبيذ .

وحرر لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث ، من شارك فيها من قريب أو بعيد ، من ذاق حلوها ثم مرها ، ومن ذاق مرها ثم حلوها . وقال لى :

ـــ اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب فى رعاية الآلهة ، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة أما أنت فتريد الحقيقة ، وكل على قدر همته ، ولكن احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت بساقط فى النسيان ، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين . .

وسعدت جدا بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية ، ويضيف كل ذى شأن إلى مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية . .

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد « المارق » : أصبحت العاصمة من جديد ، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون ، وعاد إليها رجال السلم والحرب ، واستقر الكهنة في معابدهم . وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء ، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع . كل شيء يتألق بالعزة والاستقرار ، وتيار السابلة لا ينقطع . وكنت أزورها لأول مرة في حياتي فبهرني جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر ، واقتحمتني أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتها فتبدت لي بلدتي سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء . وقصدت في الموعد المضروب معبد آمون ، فاخترقت بهو الأعمدة في إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبي أوصلني إلى الحجرة التي انتظرني بها الكاهن الأكبر . رأيته يجلس في الصدر على كرسي من الآبنوس ذي مقبضين من الذهب ، شيخا هرما حليق الرأس ، داخل نقبة طويلة واسعة ، يلف أعلاه بوشاح أبيض . وضح لي أنه رغم شيخوخته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن . حيا أبي ونوه بإخلاصه قائلا :

ـــ عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال .

وأثنى على مشروعي متمتما :

ـــ لقد حطمنا الجدران بما سجلت من أكاذيب ولكن الحقيقة يجب أن تسجل .

وحنى رأسه كالممتن وهو يقول :

ـــ اليوم يتربع آمون على عرشه ، ويقف في سفينته المقدسة بقدس الأقداس سيدا للآلهة ، حاميا لمصر ، رادعا لأعدائها ، ويسترد كهنته سيادتهم الشاملة ، هو الإلٰه الذى حرر وادينا بيد أحمس ، ومد حدودنا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا بيد تحتمس الثالث ، هو الإلٰه الذى ينصر ويذل من يخونه .

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه ، واستجمعت حواسى للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول :

ـــ إنها قصة حزينة يا مرى مون بدأت فيما يشبه الهمس البرىء ، وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث . امرأة من الشعب لا يجرى فى عروقها دم ملكى ، من أسرة نوبية ، وكانت قوية وداهية كأن فى رأسها أربع أعين ترى الجهات جميعا فى وقت واحد . وكانت فى الظاهر تحرص على إرضائنا ومودتنا ، ولن أنسى قولها لى يوم احتفال بعيد النيل :

ـــ أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون !

وكان من عادتها أن تحدق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتى يحنوا الرءوس متعثرين فى ارتباكهم . ولم نتوجس منها خيفة ولا ننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون ، حتى وجدنا الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية لتشمل ديانات الآلهة الآخرى وخاصة الإله آتون . ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى

المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها ، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز فى طيبة موطن آمون . ولم يلطف من مشاعرنا ما رددته تيى من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء . وقال لى توتو الكاهن المرتل :

ـــ إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين فى ذاته !

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال :

ـــ الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة وتقوى سلطة العرش .

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس :

ـــ نحن خدام الإلٰه والشعب ، نحن المعلمون والأطباء ، والمرشدون فى الدنيا والعالم الآخر ، والملكة العظمى سيدة حكيمة وهى لا شك تقر لنا بالفضل .

فقال توتو بامتعاض :

ـــ النزاع على السلطة ، والملكة قوية طموح ، وهى فى رأيى أقوى من الملك نفسه !

فقلت وكأنما أناقش مخاوفى :

ـــ نحن أبناء الإلٰه الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر .

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنحتب الثالث . لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثيل فى اتساعها وتعدد أجناسها. وكان ملكا قويا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير

يخطر ، وحقق انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة . غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء . جنى هو ثمار ما تعب أسلافه فى زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء ، وبنى القصور والمعابد والتماثيل ، وغرق حتى أذنيه فى الطعام والشراب والنساء . وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف فى زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار ، شجعته على الحرب حين الحرب ، وتسامحت معه فى شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة ، ولتمارس طموحها غير المحدود ، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية ، ولا أنكر إخلاصها وبُعد نظرها وحرصها على المجد والعظمة ، ولكنى آخذ عليها نهمها للسلطة ، ذلك النهم الذى سول لها أن تستغل الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين . ثم تبين لى أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها ، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين ، وتقدمتنى بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقامتها القوية المتوسطة ، فلما استقر بنا المجلس سألتنى :

ـــ ماذا يحزنك ؟

وجعلت أفكر فى اختيار رد مناسب ولكنها عاجلتنى قائلة :

ـــ إنى أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة ، إنك تظن أنى أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون ؟

فقلت مسلما :

ـــ كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة ..

فقالت وعيناها تبرقان :

ـــ إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر ، آمون سيد آلهة مصر ، وهو يقوم أمام رعايانا فى الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة ، أما آتون إلٰه الشمس فإنه يشرق فى كل مكان ويوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة !

ترى أهذا حقا ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية فى تقليم أظافرنا ؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى وقلت :

ـــ مولاتى ، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة !

فقالت باسمة :

ـــ وبالمودة أيضا ، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس ..

وآمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة ، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد .

وسكت الكاهن الأكبر كأنما ليتأمل أو ليتذكر ثم واصل حديثه :

ـــ ومما يذكر أنه صادفتها في مطلع حياتها الزوجية متاعب، فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب ، تعاني المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبى ، وبفضل آمون وكهنته ، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة ولكنها أنجبت بنتا !. وكلما التقينا فى القصر أو المعبد رمقتنى بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأننى المسئول عن سوء حظها . وما كنا نفكر فى تعكير صفو العرش أبدا ولكنها كانت قليلة الثقة فى الناس لفساد طويتها .

وسكت مرة أخرى كالمتردد ثم قال :

ـــ وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين !

وتريث الرجل حتى اشتعلت تساؤلاتى الخفية ثم قال :

ـــ مات أكبرهما وأصلحهما وبقى الآخر ليمارس شذوذه فى تخريب مصر .

وقرأ الكاهن تساؤلاتى المحرقة فقال :

ـــ نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين ، لنا من السحر قوة ، ولنا من العيون قوة .. فالمارق مجهول الأب ، فاقد الرجولة ، مؤنث الصورة ، متنافر القسمات . وعلى مثال أبيه تزوج من فتاة من الشعب ، جمعت فى شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبى والطموح الجنونى والفسق . جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه فى سياسته المدمرة . وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين . ورغم حبه الظاهر لها فلعله لم يحب فى الواقع إلا أمه ، أعطته الحياة والأفكار ، ولشدة التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون ، أما الحقيقة فهى أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله فى حياته . وقد لقنته أمه دين آتون التى آمنت به لأهداف سياسية ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا السياسة التى لم توافق طبيعته الأنثوية ، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقعه أمه نفسها . ما زلت للأسف أتذكر صورته الكريهة .. ما كان رجلا وما كان امرأة ، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من رجال وكهنة وآلهة . وقد اخترع إلٰها على مثاله فى الضعف والأنوثة ، تصوره أبا وأما فى وقت واحد ، وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب !، فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا ، وغرق فى مستنقع الحماقة معرضا

عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو ، يستغيثون ولا يغاثون ، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس . هذا هو المارق الذى سمى نفسه إخناتون !

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات ثم شبك أصابع يديه فى قبضة واحدة وراح يقول :

ـــ ومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن . وعنهم عرفت أن ولى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون ، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغانى . أدركت لتوى أنه صبى غريب ينذر بالمتاعب . وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى . وابتسم أمنحتب الثالث وقال :

ـــ ما زال ابنى طفلا .

فقلت :

ـــ ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فى أعماقه بأفكار طفولته .

فقالت تيى :

ـــ إنه ينشد الحكمة فى كافة مظانها بقلب برىء .

قال فرعون :

ـــ عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية .

فقالت تيى :

ـــ لا حاجة بنا إلى المزيد من البلدان ولكننا فى حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها ..

فقلت بوضوح :

ـــ لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة .

فقالت المرأة الداهية :

ـــ ما رأيت حكيما يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون !

فقلت بإصرار :

ـــ إنى لا أستهين بالحكمة ولكنى أراها لغوا بغير سند من القوة .

فقال أمنحتب :

ـــ لا خلاف فى هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة .

فقلت بقلق :

ـــ إنه انقطع عن زيارة المعبد ؟

فقال الملك :

ـــ صبرا ، عما قليل سيؤدى كافة واجباته كولى للعهد ..

لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر ، بل لعل مخاوفنا ـــ نحن الكهنة ـــ وجدت ما يسوغها ويقويها . وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب . وذات يوم قابلنى أحد أتباعى وقال لى :

ـــ الشمس نفسها لم تعد إلـٰها !

فسألته عما يعنى فقال :

ـــ إنهم يتهامسون هناك عن إلـٰه جديد لم يعرف من قبل تجلى لروح ولى العهد وطالبه بأن يعبده باعتباره الإلـٰه الوحيد الحقيقى فى الوجود ،

هو وحده لا شريك له ، وكل معبود سواه باطل .

صعقنى الخبر صعقا ، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر ، وتجسدت أمام عينى الكارثة فى أبشع صورة .

ـــ أأنت واثق مما تقول ؟

ـــ إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .

ـــ وكيف تجسد له ذلك الإلـه المزعوم ؟

ـــ سمع صوته فقط ..

ـــ لا شمس ولا نجم ولا تمثال ؟

ـــ لا شيء ألبته .

ـــ وكيف يعبد ما لا يرى ؟

ـــ إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة .

ـــ لقد أذاب المجنون ذاته فى اللا شيء !

وقال الكاهن المرتل توتو :

ـــ لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش .

فقلت برجاء :

ـــ اهدأ يا توتو ، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين ..

فتسائل بحدة :

ـــ ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق ؟

فقلت بكآبة :

ـــ فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة مع الملك ، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها فى تاريخنا الطويل ..

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم الصديق آى . كانت أيضا مثل الملكة العظمى تيى من أصل شعبى ولكنى تعلقت بأمل واحد راه وهو أن يرده الزواج إلى شيء من التوازن . ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر ، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب لتدبير زيارة سرية تتم بينى وبين ابنته . وتأملتها بعين فراستى المستمدة من روح آمون فتكشف لى جمالها عن قوة ذكرتنى بالملكة العظمى تيى فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لا علينا . وقلت لها :

ـــ تقبلى بركاتى يا ابنتى وابنة صديقى آى .

فشكرتنى بعذوبة فقلت :

ـــ أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون، والملكة .

فقالت :

ـــ سعيد من يصغى إلى حكمتك .

فقلت :

ـــ والملكة الحكيمة تشارك الملك فى المحافظة على الوطن والإمبراطورية .

فقالت بثبات :

ـــ أيها الكاهن المقدس ، قلبى ملىء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح :

ـــ مصر مثوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هى الوعاء المقدس للتقاليد .

فقالت بالثبات نفسه :

ـــ وقلبى مليء بالواجب أيضا .

يا لها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره . لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعى أن أكاشفها بأكثر من ذلك . غير أنها فى الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شيء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة أن تدير أكبر رأس، وسيكون همها الأول فى الحياة المحافظة على العرش، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن فى قدس الأقداس ثم وافيتهم بفحوى الحوار بينى وبين نفرتيتى ، فقال توتو معلقا :

ـــ سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلىّ متسائلا :

ـــ ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى ؟

فلمحت ما يرمى إليه وقلت بصراحة :

ـــ لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيى .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة فى القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر ملكى لولى العهد ليقوم برحلة تعارف فى أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك فى أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفيق من ضلاله . وحمدت له ذلك فى نفسى غير أن كآبتى ظلت راسخة . وفى أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية ، فقد أنجبت تيى توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات . ورحل مبعوثون إلى ولى العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول

مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تيى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها . وكان على أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك . قلت :

ـــ جئت يا مولاتى لأفضى برأيى إلى الأم الشرعية للإمبراطورية .

وأصغت إلى ومنظرها يوحى بأنها تحدس بفطنة ما سيقال .

ـــ مولاتى ، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة .

فتجهم وجهها وقالت :

ـــ لا تصدق كل ما تسمع .

فقلت بلهفة :

ـــ إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتى .

فقالت باقتضاب :

ـــ إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر .

ولذت بالصمت بغير اقتناع فقالت بثقة :

ـــ سوف يعرف واجبه تماما .

فقلت مستجمعا شجاعتى :

ـــ مولاتى تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش !

فقالت بضيق :

ـــ لا خوف على عبادة الآلهة !

فقلت مستزيدا من شجاعتى :

ـــ أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصية على العرش !

فقالت بحزم :

ـــ سيحكم أمنحتب الرابع لأنه ولى العهد .

هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودفن الملك الأب فى موعده ، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ، وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن يتحدى بعوضة لا آمون سيد الآلهة . وداريت تفززى وعزيته مقتبسا من حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقنى بنظرات محيرة . لا كراهية فيها ولا تحد ولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبنى الصمت فبادرنى هو قائلا :

ـــ طالما تسببت لى فى مناقشات مرهقة مع والدىّ !

فاستردت قدرتى على الكلام فقلت :

ـــ لا هم لى فى الحياة إلا آمون والعرش ومصر والإمبراطورية ..

فقال بهدوء :

ـــ لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

ـــ سمعت أنباء مقلقة ولكنى لم أصدقها

فقال بلا مبالاة :

ـــ إنها حقيقية !

فذهلت وانعقد لسانى فواصل حديثه :

ـــ إنى المؤمن الوحيد فى بلد من الضالين .

ـــ لا أصدق أذنى .

ـــ بل صدقهما ، لا إلٰه إلا الإلٰه الواحد .

واقتحمنى الغضب لعقيدتى فلم أعد أبالى بالعواقب دفاعا عن آمون وسائر الآلهة .

وقلت بصراحة مخيفة :

ـــ هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر ..

فقال بهدوء باسم :

ـــ لا يملك منح المغفرة إلا الإلٰه الواحد .

فقلت وأنا أنتفض من شدة الانفعال :

ـــ إنه لا شىء .

فبسط ذراعيه بحنان وقال :

ـــ هو كل شىء ، الخالق .. القوة .. الحب .. السلام .. السرور .

ثم ثقبنى بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن :

ـــ إنى أدعوك للإيمان به .

فقلت محذرا محتدا :

ـــ احذر غضب آمون ، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء ، قادر على العون قدرته على الخذلان ، قادر على التأمين قدرته على التدمير ، خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك .

فقال متماديا فى الهدوء :

ـــ إنى طفل يحبو فى رحاب الواحد ، وبرعمة تتفتح فى حديقته ،

إني راض بقدره خادم لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحى حتى أترعت بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالى بعد ذلك بشيء !

فقلت بغضب :

ـــ إن ولى العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدى آمون !

فقال باستهانة :

ـــ بل يتوج تحت نور الشمس فى رعاية الخالق الوحيد ..

وافترقنا على أسوأ حال . معى آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذى لا يبالى بشيء . وتوثبت للحرب المقدسة موطنا نفسى على التضحية فداء لإلٰهى ووطنى . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائى الكهنة :

ـــ فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تعلموا الناس به ..

ورغم حماسى وجدتنى مسوقا إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل فاقترحت عليه الانضمام فى الظاهر إلى المارق ليكون عينا لنا عليه . ومن ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضا عن العمل فتم التتويج فى رحاب الإلٰه المزعوم وأصر بتشييد معبد له فى طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ولكنهم سقطوا كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آى اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه ، وحورمحب الجندى الشجاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون